

الأنا المتعالي عند هوسرل

Husserl' Transcendental Ego

الإسم الكامل للباحث الأول: قايد سليمة¹.salima.gaid@gmail.com ¹ المدرسة العليا للأستاذة بيوزريرة

تاريخ الاستلام: 1202/05/12 تاريخ القبول: 2020/..../.. تاريخ النشر: 2020/..../..

ملخص: نحاول في هذا المقال تسليط الضوء على مفهوم الأنا المتعالي أو الكوجيتو عند هوسرل، والذي يعد المفهوم الأساسي في فلسفته، لهذا فقد سماها فلسفة الذاتية المتعالية. والحقيقة إن ديكارت هو الذي اخترع فلسفة الذاتية، وهو أيضا الذي صاغ أول كوجيتو في الفلسفة الحديثة، في عبارته الشهيرة «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، كما صاغ كانط من جهته كوجيتو خاص به، سماه الأنا المتعالي. لهذا فقد هوسرل انطلق في بناء مفهومه الخاص للكوجيتو من ديكارت وكانط، لكنه انفصل عنهما، وسار في طريق جديد أفضى به إلى كوجيتو جديد تماما في تاريخ الفلسفة، بحيث إنه وضع لهذا الأنا مجموعة من الخصائص أهمها أنه: أنا مفكر، بدهاة أولى، أنا متعالي، خالص، عيني، أولي وأصلي، ضروري، مطلق، كلي، قصدي، وأخيرا أنا تقويي. وغايتنا في هذا المقال هو أن نشرح هذه الخصائص، لكي نستشف منها حقيقة هذا الأنا المتعالي، ثم نسعى لإبراز دوره الحاسم في فينومينولوجيا هوسرل.

كلمات مفتاحية: الأنا مفكر، الأنا المتعالي، الأنا الخالص، الذاتية، الرد، القصدي، التقويم.

Abstract: This article aims to shed light on Husserl's concept of the transcendental ego or Cogito, which is the basic ground of his philosophy. Husserl crafted his own concept of the cogito from Descartes and Kant, but distinctly he took a new path which led to a conception of a completely new cogito in the history of philosophy. He attributed to this ego a set of characteristics; the most important is that it is reflective, transcendent, pure, concrete, primordial, original, necessary, absolute, omnipotent, intentional, and constitutive. This article purposes to explain those characteristics, in

order to determine the significance of transcendental ego, and then highlight its decisive role in Husserl's phenomenology.

Keywords: reflective ego, transcendental ego, pure ego, subjectivity, reduction, intentionality, constitution.

سليمة قايد

الأنا المتعالى عند هوسرل

1. مقدمة:

أطلق هوسرل على فلسفته اسم فلسفة الذاتية المتعالية، وذلك لأنه بنى هذه الفلسفة بأكملها على مبدأ واحد، اعتبره المبدأ الأسى لكل فلسفة حقيقية، هو الذاتية المتعالية أو الأنا المتعالى (Le Moi transcendantal) أو الكوجيتو، لكن بالرغم من الأهمية القصوى التي يكتسبها هذا المفهوم عند هوسرل إلا أنه جد غامض، ذلك أنه ميّز بين ثلاثة أنوات في الإنسان، هي الأنا التجريبي (البدن)، الأنا النفساني (النفوس) وأخيرا الأنا المتعالى والخالص (الأنا الفلسفي)، وهو الأنا الذي اتخذه كنقطة بدء جذرية ليؤسس فلسفته بأسرها انطلاقا منها، ومع هذا فإن مفهوم الأنا المتعالى ملفوف بغموض لا حدود له، حيث يصعب علينا تحديده بوضوح. وهذا لأن هوسرل أصر على أن الأنا الخالص متميز تماما عن البدن وعن النفس، وأنه لا ينتمي إلى العالم الفيزيائي أو النفساني، بل يوجد خارج العالم ككل. وعندها سنتساءل حتما: وما عسى أن يكون هذا الأنا غير التجريبي وغير النفساني، وغير العالمي أصلا؟ وما هو الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه لكي ندركه؟ وما هو على وجه الدقة الدور الذي يقوم به في فينومينولوجيا هوسرل؟

2. الأنا الهوسرلي هو أنا مفكر:

يعرف هوسرل الأنا الخالص* بأنه "الأنا أفكر"، حيث يكمن نشاطه الأساسي في التفكير. وبما أن هوسرل يميز بين موقفين للإنسان هما الموقف الطبيعي الساذج، الذي يستحيل أن تتأسس فيه الفلسفة، والموقف المتعالى، وهو الموقف الوحيد الذي تنشأ فيه الفلسفة، فإنه يميز تبعا لذلك بين أنا الموقف الطبيعي والذي يكمن في الأنا التجريبي والأنا النفساني، وأنا الموقف

* في الحقيقة يطلق هوسرل على الأنا المتعالى عدة أسماء من بينها الذات المتعالية، الذاتية المتعالية، الوعي (Conscience)، الأنا أفكر، الأنا الخالص، الأنا الفينومينولوجي، الأنا التأمل، الأنا الفلسفي...

المتعالي وهو الأنا المتعالي أي الأنا أفكر. وهذا الأنا لا يظهر أبدا في الموقف الطبيعي، لأن الوعي يكون مستديرا عندئذ بالكلية نحو العالم الخارجي، الذي يظن أنه العالم الحقيقي، متناسيا بذلك وجوده الخاص كذات مفكرة. لهذا فإن الوصول إلى الأنا أفكر يقتضي سلوك منهج خاص جدا وصارم جدا، هو منهج الرد أو الإيبوخي الفينومينولوجي، والذي يعني تعليق وجود العالم من أجل اكتشاف الأنا المتعالي، "فالغرض الفلسفي من إجراء الرد هو أن يقطع أولا مع الموقف الطبيعي وأن يخرج من عالمه ليكشف عن الوعي". (يوسف بن أحمد، 2008، ص161) لهذا سيعتبر هوسرل الأنا أفكر المتبقي الفينومينولوجي من عملية التعليق. "عندما يضع الإيبوخي الواقع العالمي بين قوسين، فإنه يترك الوعي سليما، باعتباره المتبقي الفينومينولوجي" (Jules Bednaski, 1957, P340) لهذا يسميه هوسرل الأنا الفينومينولوجي، لأن المنهج الفينومينولوجي هو وحده القادرة على كشف الستار عنه.

ويظهر لنا بذلك أن هوسرل يحي الكوجيتو الديكارتية، كما أنه يسلك إليه بالتقريب نفس الطريق الذي اتبعه ديكارت قبله، مع بعض التعديلات طبعا، لأن الرد الفينومينولوجي هو تطوير وتنقيح للشك الديكارتية. "الرد المتعالي، مثلما شيدناه منهجيا، كان ردا إلى الذاتية المتعالية، وقد أشرنا إليه عدة مرات بألفاظ ديكارتية، بوصفه الرد إلى الأنا أفكر، ويبدو بذلك أنه من البين بذاته أن الأمر يتعلق بالرد إلى أناي المتعالي الخاص، ذلك الذي يمارس الرد إلى حياتي الخاصة". (Husserl, 1972, T2, P239). وسيكون الرد المتعالي في النهاية إذن هو رد العالم إلى الأنا المتعالي. ويؤكد هوسرل أن هذا الرد هو الطريق الوحيد الذي نكتشف من خلاله الأنا أفكر. "منهج التعليق... هو الطريق الوحيد الذي بواسطته أدرك ذاتي كأنا خالص، أو كذاتية متعالية". (نادية بونفقة، 2005، ص24)

3. الأنا الهوسرلي هو البداية الأولى:

بعد أن وضعنا أن الأنا الخالص هو «أنا مفكر»، سيكون من السهل علينا أن نبين أنه يمثل البداية الأولى بين كل البدايات الأخرى، والتي يشترك فيها جميع الناس دون استثناء. "بداية أولية مشتركة، هي بداية الأنا أفكر". (André- A. Devaux, 1954, P 273) حيث يكون وجود «الأنا أفكر» وجودا بديهيا تماما، وهو كذلك بالنسبة إلى صاحبه طبعا، لأن كل إنسان سيدرك ذاته بذاته، "مثلما يجب وعن طريق فعل شخصي رد الوقائع، لكي نرى الماهيات، يجب أيضا وعن طريق فعل شخصي مثله تماما رد العالم، لكي نجد الأنا الخاص بنا". (Gaston Berger, 1941, P66)

ومعرفة الأنا لذاته ترتقي إلى أعلى درجات اليقين، لأنها معرفة يقينية على الوجه الأكمل، إذ يبين هوسرل، على غرار ديكارت، أن بداية الكوجيتو هي بداية قطعية، ومن ثم لا مجال للشك فيها،

وهذا هو بالضبط السبب الذي جعل الرد يتوقف عندها، مثلما توقف عندها سابقا الشك الديكارتي، إذ أننا نستطيع تعليق كل وجود ماعدا وجود الأنا المتعالي، فهو وجود بديهي ويفرض نفسه علينا، ولا مجال لإنكاره مطلقا، مما يدفعنا للاعتراف بوجوده قطعاً. "أنا موجود هي الحقيقة المطلقة التي لا يمكن الشك في وجودها، حتى وإن ثبت أن العالم مع كل ما يحتويه هو مجرد وهم". (نادية بونفقة، 2005، ص24) ويتضح بذلك أن بدهاة الوعي ترجع إلى بدهاة الكوجيتو، "ليست بدهاة الوعي شيئاً آخر غير بدهاة الكوجيتو، التي تستلزمها بالضرورة كل البدهات". (Daniel Christoff, 1966, P52)

ومن هنا لا يمكن للذات أن تكون على يقين من أي موضوع ما لم تربطه بالكوجيتو، وما لم تكن على يقين أولاً من وجودها الخاص. "متطلب جذرية نقطة البدء لديه كمقابل له تعليق البدهات الناقصة، ولن يحتفظ إلا بالبدهات المؤسسة على قطعية الكوجيتو، ووحدها البدهات المرتكزة على قطعية الكوجيتو هي التي يجب الاحتفاظ بها". (Jules Bednaski, 1957, P425)

بعد أن بيّنا أن الأنا أفكر هو حقيقة بديهية على الإطلاق، فإننا سنفهم لماذا جعله هوسرل المبدأ الأول لفلسفته، فهو كان يطمح لتأسيس المذهب الجذري (Radicalisme)، الذي لا يسلم بأية حقيقة ما لم يثبتها براهين قاطعة. وبما أنه لا يمكننا إثبات كل الحقائق، فقد كان من الضروري أن توجد حقيقة أولى، لا تحتاج إلى برهان، وتكون هي التبرير الأخير لكل الحقائق الأخرى. ولا يمكنها أن تكون كذلك إلا إذا ارتقت إلى مستوى البدهاة القطعية، وقد وجد هوسرل هذه البدهاة القطعية في الكوجيتو، لذلك فقد اتخذها كنقطة بدء جذرية لفلسفته، بل ولكل العلوم. "ومن خلال إتباع هوسرل لهذه الحركة الأصيلة لكل فلسفة، فإنه سيحاول استخراج بدهاة أولى، والتي تفيد كأساس قطعي للمعرفة الفلسفية والعلمية". (Jules Bednaski, 1957, P425)

4. الأنا الهوسرلي هو أنا متعالي:

قلنا في البداية إن هوسرل عرّف الأنا أفكر بأنه أنا متعالي، لكننا نحتاج الآن إلى أن نشرح هاته الخاصية بعمق أكبر، فنعرّفها بقولنا يعني التعالي عند هوسرل اللا عالمي (Non- mondain)، وعلى هذا فإن الأنا أفكر هو «أنا غير عالمي»، أي مستقل تماماً عن العالم.

أشرنا سابقاً إلى أن الطريق الوحيد لاكتشاف الأنا عند هوسرل هو الرد المتعالي، ويعني ذلك أننا لن ندرك الأنا إلا بابتعادنا التام عن العالم وانفصالنا الكامل عنه، ومن ثم ولوجنا إلى حقل جديد هو حقل المتعالي، الذي ندخل إليه إلا من خلال إدراكنا للأنا المتعالي، الذي يعد المقدمة الأولى والضرورية لولوجه.

وبما أن تعليق العالم هو شرط أساسي لإدراك الأنا، فإنه سيترتب عن ذلك وبوضوح تام أن هذا الأنا هو أنا غير عالمي وغير طبيعي على الإطلاق. "في الواقع يصل الإيبوخيه إلى عزل البعد المتعالي للوعي، والذي لا يكون عالميا، لكنه يتجاوز مستوى الطبيعة". (Jules Bednaski, 1957, P339) ويتعبير أوضح وأدق يقصد هوسرل بذلك أن "الأنا المتعالي موجود خارج العالم". (Gaston Berger, 1941, P137).

توجد جميع الأشياء داخل العالم، أي أن وجود العالم هو شرط ضروري وأساسي لوجودها، لذلك فإننا عندما علّقنا وجود العالم، فقد نتج عن ذلك تعليق كل الموجودات التي توجد فيه. لكنه وخلافا للأشياء فإن وجود الأنا أفكر هو غير عالمي، أي أنه يوجد خارج العالم وليس داخله، لذلك فإننا حين أنجزنا الرد استطعنا أن نُبقي على وجود الأنا أفكر، لأن الرد يشمل كل شيء ماعدا الأنا المتعالي. والحقيقة إن استقلال الأنا المتعالي عن العالم هو الذي جعل الرد ممكنا، ويعتبر هوسرل استخراج الأنا من العالم تحريرا له منه، أي تحريرا للأنا من سلطان العالم عليه. "عندما يُفهم الرد على هذا النحو، فإنه سيصبح في الأفكار... فعل تحرير خاص للوعي الذي يعثر على ذاته". (Daniel Christoff, 1966, p38).

من الواضح أن هوسرل رجع إلى مفهوم المتعالي عموما عند كانط، وأحياء في فلسفته، لكنه إذا كان المتعالي مقابلا للتجريبي عند كانط، فهو مقابل للعالمي عند هوسرل. "يقابل المتعالي «التجريبي» عند كانط، وعند هوسرل «العالمي»". (Gaston Berger, 1941, P123) إلا أنه وبالرغم من كل الاختلافات الموجودة بين الفيلسوفين في تصورهما لهذا المفهوم، إلا أنهما يتفقان في الدور الذي يقوم به، فالمتعالي عند كانط هو ما يكون مستقلا عن التجربة، لكنه ضروري لها في الوقت نفسه، وعند هوسرل هو ما يكون مستقلا عن العالم، لكنه ضروري له في الوقت نفسه، فمثلما يكون المتعالي مستقلا عن التجربة وشرطا ضروريا لوجودها عند كانط، كذلك يكون المتعالي عند هوسرل، مستقلا عن العالم وشرطا ضروريا لوجوده، وهذا هو بالضبط معنى الأنا المتعالي عند هوسرل، فهو الأنا الذي يكون مستقلا عن العالم، لكنه ضروري لوجوده. والحقيقة إننا لن نتمكن من فهم علاقة العالم بالأنا الخالص إلا لاحقا، وذلك عندما نتطرق إلى مسألتنا القصدية والتفوييم، لذلك سنترك شرحها إلى ما بعد.

5. الأنا الهوسرلي هو أنا خالص:

أما فيما يخص عبارة «الأنا الخالص»، فإنها تعني أن هذا الأنا خال تماما من أية عناصر تجريبية أو نفسانية. ولكي يضمن هوسرل الخلو الكامل للأنا الفينومينولوجي، فإنه ميّز بينه وبين الأنا التجريبي والأنا النفساني، وألح على ضرورة إخضاع هذين الأخيرين لمنهج التعليق، وذلك

حتى يقطع الطريق أمام أية عناصر تجريبية أو نفسانية يمكن أن تتسلل إلى الأنا الخالص من خلال الأنا التجريبي والأنا النفساني، بسبب علاقته القوية بهما. حيث سيبين الرد أنه مثلما يستقل الأنا في وجوده استقلالاً تاماً عن العالم، فإنه يستقل كذلك استقلالاً تاماً عن الأنا التجريبي والأنا النفساني، فهو لا يختلط في وجوده الخاص بأي منهما. "السؤال الذي يجب أن يُطرح هو: بأي معنى يمكن أن يقال عن الأنا إنه «خالص»؟ أو ببساطة أكبر بالنسبة إلى الوقت الحاضر، ما الذي يسعى مفهوم «الخلوص» هذا لتحديده؟ الإجابة أولى ستكون بالتأكيد، إنه لا يعني سوى استقلال الأنا الخالص إزاء الأنا التجريبي. جراء ذلك، فإن الأنا الخالص هو ذلك الأنا الذي يبقى بوجه ما هو ذاته، واحداً، بينما الشخص التجريبي يتغير". (Mario Charland, 1999, P41)

نستنتج إذن أن لفظ الخالص يعني أولاً وقبل كل شيء أن الأنا الفينومينولوجي مستقل تماماً في وجوده عن الأنا التجريبي، وهو البدن الذي يكون موضوعاً للعلوم الطبيعية كالطب والبيولوجيا، وعن الأنا النفساني أيضاً، وهي النفس التي تكون موضوعاً لعلم النفس، أي أنه خال تماماً في ذاته من أية عناصر تجريبية أو نفسانية، "وهكذا فإن «الأنا الخالص» الذي يكشفه لنا الرد ليس لديه أي شيء مشترك مع الأنا التجريبي الذي يعمل وسط الأشياء، ولا مع الأنا-الشخص، في محيطه الإنساني، ولا مع الأنا الذي يدرسه علم النفس عن طريق الملاحظة الخارجية أو عن طريق التجربة الداخلية". (Ludovic Robberechts, *Husserl*, 1964, P92)

6. الأنا الهوسرلي هو أنا عيني وواقعي:

الأنا المتعالي عند هوسرل هو أنا عيني (Concret) وواقعي (Réel)، "هذا الأنا (أو الشعور المتعالي، ليس أنا فارغاً وصورياً، بل أنا ملموس (Concret)" (بونفقة، 2005، ص 97) وقد حرص هوسرل على أن يجعل الأنا عينياً وواقعياً في فلسفته، حتى يتفادى السقوط في الأنا الكانطي الذي كان أنا صورياً ومجرداً. "يختلف الكوجيتو الكانطي والكوجيتو الهوسرلي من جهة أخرى، فهما يختلفان من حيث الذات التي ينطويان عليها، بالنسبة إلى كانط الأنا هو مجرد صورة منطقية، نشاطها هو في الأساس تركيبية". (Alfred Weber et Denis Huisman, 1957, P335)، والأمر بالعكس عند هوسرل.

نعرف أن كانط قال بالكوجيتو بعد ديكارت، كما نعرف أنه هو الذي اخترع لفظ الأنا المتعالي، وقد يوحي ذلك إلى أن الأنا المتعالي لهوسرل أقرب إلى كانط منه إلى ديكارت، صحيح أن الأمر كذلك في بعض النواحي التي سنشير إليها في مقالنا هذا لاحقاً، لكن فيما يتعلق بمسألة واقعية الأنا فإن

هوسرل قريب من ديكارت، وجد بعيد عن كانط. ذلك أن الأنا المتعالي عند كانط هو مجرد وظيفة يقوم بها الوعي، وهي تكمن في التوحيد والتركيب بين معطيات التجربة، "الذات المتعالية عند كانط هي الوحدة المتعالية لوعي الذات بذاتها، إنها مبدأ يوحد التجربة من دون أن يصدر عن التجربة".

(Rakotomalala Christian Daniel, Juin 2021, P60).

حيث يكمن نشاط الأنا المتعالي في توحيد مجموع الحدوس التجريبية وتنظيمها من أجل إنتاج المعرفة الحسية أولا -بفضل صورتها الحسية-، ثم المعرفة العقلية بعد ذلك -بفضل مقولات الفهم- وهذا ما يبين لنا بوضوح أن الأنا المتعالي الكانطي هو أنا منطقي بالدرجة الأولى، لأن الوظيفة التي يقوم بها هي وظيفة منطقية صرفة. "بما أن الأنا ليس لا ظاهرة، ولا نوماناً، يبقى هنا أنا

منطقياً، مجرد صورة للوعي. وهو يتطابق، تحت لفظ المتعالي، مع مجموع القبلي. ومع ذلك فإنه

وظيفة توحيد كل تمثالاتنا في الإدراك الواعي الخالص والمتعالي".

(Rakotomalala Christian Daniel, Juin 2021, P87).

وبما أن الأنا لمتعالي عند كانط هو أنا منطقي، فلا يمكنه أن يكون إلا أنا صورياً ومجرداً، فيفتقر بذلك إلى الوجود الواقعي، وهو ما يعترض عليه هوسرل، فيصر على أن الأنا المتعالي هو أنا عيني وواقعي. "الفرق بين هذا الأنا و«الأنا أفكر الكانطي»... في كل الفلسفة النقدية لما كان «الأنا أفكر»

قدرة للتركيب، فهو أساس نسق المقولات وقدرتها التوحيدية. الأنا أفكر الخالص لهوسرل ليس

إطاراً صورياً، إنه لا يمارس نشاطاً تركيبياً، لأن الإدراك لا يمارس على الشيء، ولأنه ليس تركيبياً، بل

هو رؤية". (Daniel Christoff, 1966, P52)

بعكس الأنا الصوري لكانط، قدم لنا ديكارت أنا عينياً تماماً، ذلك أن "الذات الديكارتية المتحصل

عليها بواسطة عمليتي الشك والكوجيتو هي ذات عينية، معيش وليست إطاراً مجرداً".

(Lothar Kelkel et René Schérer, 1964. P19).

وقد اتفق هوسرل في هذه الفكرة مع ديكارت، كما اتفق معه في أننا ندركه عن طريق الحدس*.

"يلتقي هوسرل وديكارت في الطريقة التي يؤكدان بها الكوجيتو. الأنا أفكر ليس واقعة نختبرها،

وليس وجوداً ندركه، بل هو حقيقة الوجود الذي نعرفه بحدس العقل". (Gaston Berger, 1941, PP135-136)

متفقاً هنا مع هيوم وكانط وكل الفلاسفة الذين جاءوا بعدهما على إنكار جوهرية الأنا. "الأنا"

بالنسبة إلى هوسرل عيني، من دون أن يكون جوهرياً". (Gaston Berger, 1941, P128)

* غير أن الحدس يختلف من هوسرل إلى ديكارت، فالحدس بالنسبة إلى ديكارت هو حدس عقلي خالص، أما بالنسبة إلى

هوسرل فهو الحدس الماهوي فقط.

7. الأنا الهوسرلي هو أنا أولي وأصيل:

قلنا سابقا، إن الأنا الخالص عند هوسرل موجود خارج العالم، ونضيف الآن إنه موجود قبل العالم، فهو أنا أولي أو قبلي، أي أن وجود الأنا يسبق بالضرورة وجود العالم. "الوعي مستقل عن الواقع العالمي في وجوده، إنه أولي بوصفه الموجود الدال، إنه ما تصل الدلالات من خلاله إلى العالم". (Jules Bednaski, 1959, P341)

ويظهر بذلك أن هوسرل يسير في خط المثالية الألمانية الذي يبدأ من لايبنتز ويمر من كانط وفيخته وهيجل وغيرهم، ليصل إليه، ومن المؤكد أن ديكرت قد ساهم كثيرا في نشأة المثالية الألمانية، والمثالية عموما، من خلال قوله بالكوجيتو، أي قوله بأسبقية وجود الفكر على وجود العالم، وهي الفكرة التي سيستعيدها هوسرل هنا. لكن هوسرل ينفصل عن ديكرت عندما يعلن أن أسبقية الأنا هي أسبقية مطلقة، فوجوده قبلي على الإطلاق، أي أنه الوجود الأول على الإطلاق، وليس هناك وجود آخر يسبقه. بينما نعرف أن ديكرت قد ميز بين نظام المعرفة ونظام الوجود، ففي نظام المعرفة يكون الأنا هو الوجود الأول، أما في نظام الوجود فلا، لأن وجود الإله يسبق وجود الذات، ويسبق كل وجود آخر، لذلك فإن وجود الإله يكون هو الوجود الأول على الإطلاق في نظام الوجود، وهو النظام الحقيقي والواقعي. أما هوسرل فمثلما حرص على إفراغ الكوجيتو الديكرتي من مضمونه الأنطولوجي، فإنه حرص أيضا على إفراغه من مضمونه اللاهوتي، حيث رفض أن يربط وجود الأنا بوجود الإله، بل وأصر على ضرورة تعليق وجود الإله مثل كل وجود آخر مفارق للذات، "أما فيما يخص فكرة الإله، فإن هوسرل، كما لا يخفى على الدارس، اعتبرها كغيرها من المفارقات مجردة من اليقين، وبالتالي فمن الواجب إخضاعها لقانون التعليق". (نادية بونفقة، 2005، ص25). وذلك من أجل ألا يستبقي في النهاية إلا على الأنا المتعالي، وقد أنكر حاجته إلى الإله، باعتباره ضامن الحقيقة، كما كان الحال عند ديكرت، لهذا فإنه جعل الأنا الخالص وجودا أوليا وأصيلا على الإطلاق، لأنه لا يحتاج إلا إلى ذاته في وجوده الخاص. "هوسرل... امتنع عن تأسيس فكرة الكوجيتو على فكرة اللانهائي، مثلما فعل ديكرت ذلك، والذي ومن أجل ضمان يقين البداهة الأولى سيتعالى عن حقيقة الأنا أفكر إلى الإله موجود. مفارقة الإله تبقى مقصية مثل مفارقة العالم والأنا النفساني الجسدي، ولا يمكن أن يوجد في نهاية التحليل إلا مطلق واحد، هو مطلق الوعي المتعالي". (Lothar Kelkel et René Schérer, 1964, P53)

ولما كان الأنا الخالص موجودا قبل العالم وباستقلال تام عنه، فإنه يملك الوجود الأصلي، أي وجود الخاص به هو وحده، والمتميز عن كل وجود آخر، والذي يبقى سليما من كل تدنس بوجود آخر غريب عنه، لذلك فإن وجوده هو وجود أصيل فعلا، ولا تشوبه شائبة من شوائب الموجودات الأخرى. يقول هوسرل: "بالنسبة إلى فإن أناي المتعالي الخاص بي وحياتي الخاصة تتمتعان بمزية المعطى الأولي، المعطى الأصلي، وذلك بقدر ما أنني أمتلك أناي من خلال تجربتي، فأنا لا أنفتح مباشرة إلا على أناي فقط." (Edmund Husserl, 1972, T2, P241)

ينعم الأنا الخالص بالوجود المستقل، فهو لا يحتاج إلى أي شيء من أشياء العالم لكي يكون موجودا، ويستمد وجوده وحقيقته من ذاته فقط، فهو الوجود الذي يكفي ذاته بذاته، لذلك فهو وجود أصيل حقا. "لكن الأمر يتعلق في الحاضر بالأنا المتعالي، أي الأنا بوصفه موجودا في ذاته ولذاته على الإطلاق، وقبل كل موجود عالمي." (Husserl, 1957, P 381). لهذا فقد سماه هوسرل "الأنا المونادي (Le moi monadique)" (Edmond Husserl, 1953. P58) أو المونادة (La Monade). وهو المفهوم الذي أخذه من لايبنتز. وكان يعني عنده الجوهر البسيط المكتفي بذاته والمنغلق على ذاته.

8. الأنا الهوسرلي هو أنا ضروري:

يميز هوسرل تمييزا واضحا بين وجود العالم ووجود الأنا الخالص، فوجود العالم جائز (contingent) تماما، "عندما يُفهم الرد على هذا النحو، فإنه سيصبح في الأفكار... فعلا خاصا لتحريير الوعي الذي يعثر على ذاته، والذي يبدو له الموقف الطبيعي وأطروحة العالم أكثر فأكثر جوازا." (Daniel Christoff, 1966, P38) أي كلما تقدمنا في الرد، كلما بدا لنا الطابع الجائز للعالم أكثر. بينما يكون وجود الأنا ضروريا، والسبب الرئيسي الذي يجعل الأنا المتعالي يتمتع هو وحده بمزية الوجود الضروري، هو أن وجوده هو وجود خالص، ومن ثم مستقل تماما عن العالم، لذلك فإنه يمكننا افتراض عدم وجود العالم، دون الوقوع في أي تناقض منطقي، بينما يستحيل علينا فعل ذلك مع وجود الأنا الخالص. وتنشأ هذه الضرورة من الوجود الخاص الذي يحوزه الأنا الخالص، فهو موجود في ذاته ولذاته، ولا يحتاج في وجوده لأي موجود آخر غيره. "الأنا الموجود في ذاته ولذاته على نحو خالص." (Husserl, 1957, P 385)

والحقيقة إن جواز العالم من جهة وضرورة الأنا من جهة أخرى، هما اللذان جعلنا الرد ممكنا، لأن الرد يكمن وعلى وجه التحديد في استبعاد دائرة الوجود الجائز، والبحث عن دائرة الوجود الضروري، وهو وحده الذي يستطيع أن يبقى بعد الرد. لذلك فضرورة وجود الأنا هي السبب

الرئيسي الذي يؤهله لأن يكون المتبقي الوحيد من عملية الرد، لأن ضرورة وجوده تجعل رده أمرا مستحيلا، فيكون الأنا الخالص هو الحد النهائي الذي يتوقف عند الرد الفينومينولوجي. "ولما كان وجود العالم جائزا فقط، فقد كان في استطاعتنا إخضاعه للرد، بالعكس لما كان الأنا وجودا ضروريا، فإنه يمتنع عن الرد، ويظل بعده بوصفه المتبقي الفينومينولوجي. التمييز بين الوعي الموثوق فيه والضروري من جهة، والشيء المشكوك فيه والجائز من جهة ثانية، يوصلنا إلى هذه النتيجة وهي أنه إذا كانت الطبيعة العالمية تقبل الإيبوخيه، فإن الوعي يشكل الحد الذي يجب أن تتوقف عنده كل محاولة للرد". (Jules Bednaski, 1957, PP424- 425)

9. الأنا الهوسرلي هو أنا مطلق:

وإذا تبينت ضرورة وجود الأنا الخالص، ستبين معها حتما مطلقية وجوده، حيث يصير هوسرل على أن الأنا الخالص هو "الأنا المطلق" (Gaston Berger, 1941, P55)، وذلك في مقابل نسبية وجود العالم، حيث يملك الأنا الوجود المطلق، الذي يرفعه فوق العالم، ويجعله مستقلا عنه بالكلية. ومثلما يكشف الرد وجود الأنا يكشف أيضا مطلقيته. "عندما يمارس كل واحد منا التأمل على طريقة ديكارت، فإنه سيرتد إلى أنه المتعالي عن طريق منهج الرد الفينومينولوجي، وبطبيعة الحال إلى هذا الأنا الواقعي مع مضامينه المونادية العينية، بوصفه أنا مطلقا، واحدا ووحيدا". (Edmond Husserl, 1953, P58)

ويلتقي هوسرل في هذه المسألة الهامة مع ديكارت، فالأنا المفكر، مستقل في وجود لا عن العالم فحسب، بل عن بدنه الخاص أيضا، ويضيف هوسرل إلى ذلك استقلاله عن الأنا النفساني الخاص به، وهذا ما يؤهله لأن يكون أنا مطلقا حقا. "من هنا فإنه وبينما يكون وجود العالم نسبيا، فإن الوعي «في وجوده الخاص والمطلق» يوجد من ذاته و«لا يحتاج إلى أي شيء لكي يوجد». يمكننا أن نقارن هذا التأمل مع تأمل ديكارت، في ...[أن] وجود الأنا أفكر هو الذي يطرح نفسه باستقلال عن البدن وعن العالم". (Daniel Christoff, 1966, P39)

قبل إجراء الرد كنا نتصور أن الأنا موجود في العالم، وأنه مرتبط به في وجوده ولا يستطيع الوجود من دونه، لكن هذا وهم فقط. لأننا بعد قيامنا بالرد سنكتشف الحقيقة، وهي أن وجود العالم ليس شرطا ضروريا لوجود الأنا، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الأشياء الطبيعية، التي تتعلق وجودها بالعالم، لأن الأنا الخالص سيوجد سواء أوجد العالم أم لا، لأن وجوده مطلق حقا. "أنا موجود هي الحقيقة المطلقة التي لا يمكن الشك في وجودها، حتى وإن ثبت أن العالم مع كل ما يحتويه هو مجرد وهم". (نادية بونفقة، 2005، ص24).

ويؤكد هوسرل على أن وجود الأنا المتعالي هو وجود مطلق على الإطلاق، بمعنى أنه لا يكون تابعا في وجوده لأي موجود آخر، حتى لو تعلق الأمر بالله، فالأنا مستقل تماما، والحقيقة إنه لا يوجد إلا مطلق واحد عند هوسرل هو مطلق الذات، "ولا يمكن أن يوجد في نهاية التحليل إلا مطلق واحد،

هو مطلق الوعي المتعالي". (Lothar Kelkel et René Schérer, 1964, P53)

أما وجود الإله، وحتى وإن كان يُفترض بأنه وجود مطلق، إلا أن هذا الوجود المطلق يختلف بالكلية عن الوجود المطلق الذي يختص به الأنا وحده، لذلك فقد أكد هوسرل على ضرورة إخضاع وجود الإله للرد، مثل سائر الموجودات الأخرى. "الإله... يجب أن يُتضمن داخل الإيبوخيه، إنه يقدم نفسه بوصفه مطلقا، لكن هذا المطلق يبقى غريبا عن مطلق الوعي". (Jules Bednaski, 1959, P341) والخلاصة هي أن الأنا المتعالي هو المطلق الحقيقي والوحيد عند هوسرل، ولا يوجد مطلق آخر فوقه، لذلك فإنه يصلح لأن يكون الأساس المطلق والوحيد للفلسفة الجذرية.

10. الأنا الهوسرلي هو أنا قصدي:

من أهم سمات الأنا الخالص عند هوسرل القصدية، حيث يعرفه بأنه "الوعي التأملي والقصدي". (Jean- Sébastien Hardy, 2008, P19) والقصدية هي العلاقة الأساسية التي تجمع الذات بموضوعها، وقد عبّر عنها هوسرل بصيغته الشهيرة كل وعي هو وعي بشيء ما. "تستلزم ماهية كل كوجيتو فعلي بوجه عام، أن يكون وعيا بشيء ما". (Edmund Husserl, 1950, P115) بالرغم من أن الأنا الخالص والمتعالي هو أنا مطلق ومستقل تماما عن العالم، وبالرغم من أنه منغلق على ذاته من وجه ما، إلا أنه لا يترتب عن ذلك أن يكون أنا منغلقا على ذاته على الإطلاق، وبلغة أدق الأنا المتعالي منغلق على ذاته في وجود الخاص، لأنه لا يحتاج إلى أي موجود آخر لكي يوجد، لكنه مرتبط بالعالم في أفعاله الخاصة، أي في أفعال التفكير. لهذا فإنه يستحيل على الأنا المتعالي أن يكون منغلقا بالكلية على ذاته، وإلا كان فارغا وبلا قيمة، بالعكس تماما إنه يبقى منفتحا باستمرار على العالم*، من خلال فعل التفكير الذي يظهر فيه العالم للأنا. "ليس وعيي داخلية ضيقة ومنغلقة، إنها تتوسع حتى تنفتح على العالم، من حيث إنه يظهر لها". (Edmund Husserl, 1950, P26).

* في الحقيقة يكون انفتاح الأنا المتعالي على الخارج مزدوجا، فهو منفتح على العالم المادي من جهة، ومنفتح على الآخرين من جهة ثانية، أي على الذوات الأخرى، أو ما يسميه هوسرل الأنا الآخر (L'Alter Ego). وذلك من خلال البينذاتية (L'intersubjectivité)، وبطبيعة الحال يستحيل علينا التطرق إلى هذه الفكرة المهمة في هذا المقال المتواضع.

بما أن حياة الأنا تكمن في التفكير، وبما أنه يستحيل على الأنا أن يفكر، إلا بحضور الموضوع الذي يفكر فيه، فإن الأنا يقصد إلى الموضوع، أي يتوجه إليه بنفسه بغية إدراكه، والرد وحده هو الذي يكشف عن قصديته. "الرد أرجع الوعي إلى ذاته والوجود إلى الكوجيتو، لكن الكوجيتو قصدي: ولا يقتصر الأمر على أن كل وعي هو وعي بموضوع ما فقط، وإنما العكس أيضا، أي أن كل موضوع مفكر فيه هو موضوع بالنسبة إلى الوعي. لا يفهم الكوجيتو على نحو صحيح إلا طبقا لصيغته المطورة «أنا أفكر في موضوع ما، أو أفضل من ذلك، أنا أفكر في موضوع»." (Daniel Christoff, 1966, P44)

وهكذا نجد أن هوسرل انتقل من كوجيتو ديكارت إلى الكوجيتاتوم الخاص به، أي من «أنا أفكر»، إلى «أنا أفكر في موضوع ما». "الكوجيتاتوم يحيل إلى الكوجيتو، والموضوع إلى الذات، والعالم المُفكر فيه إلى ما يُفكر". (Gaston Berger, 1941, P54)

والسبب الذي دفع هوسرل إلى إدخال هذا التعديل العميق على الكوجيتو، هو نقده لديكارت، حيث لاحظ أن الكوجيتو كما طرحه ديكارت هو كوجيتو فارغ، لأنه يقتصر على الذات دون الموضوع، وفي هذه الحالة سيكون الأنا عاجزا عن التفكير، لعدم وجود الموضوع الذي يمارس عليه فعل تفكيره، وسيسقط ديكارت بذلك في الأنا الصوري لكانط بالرغم عنه. "ولكن ديكارت -في رأي هوسرل- وقع في أخطاء مميتة: أولا عرف ديكارت الأنا المفكرة cogito، لكنه لم يعرف موضوع التفكير cogitatum، ولذلك ظلت الذاتية لديه فارغة من أي مضمون حتى انتهى إلى الصورية المحضة عند كانط، الذي أصبحت المعرفة على يديه مجرد قوالب فارغة". (حسن حنفي، 1990، ص 265)

ويبين هوسرل بذلك أن كل إدراك يقوم على ثنائية يستحيل تحطيمها، وهي ثنائية الذات والموضوع، فالذات هي التي تمارس فعل التفكير، لكنها لا تمارسه إلا على موضوع ما، وهذا هو وجه الدقة معنى القصديّة، التي تعتبر الخاصية الأساسية لكوجيتو هوسرل، والفاصل الحاسم بينه وبين ديكارت. "من خلال هذا الاعتراف بالذات المفكرة، نحن لا ندرك فكرا منغلقا على ذاته، ومؤسسا لعالم أصيل أمام ذلك الذي قمنا برده. ما سنمتلكه عندئذ هو كلية الظواهر بالمعنى الخاص والموسع للفينومينولوجيا. وتعني الظاهرة هنا العالم المفكر فيه من قبل الذات، من حيث إن هذه الذات تفكر فيه... يمكن أن يعبر عنه كما يلي: "أنا أفكر في موضوع التفكير"، هنا يتدخل المفهوم الأساسي لقصديّة الوعي لكي يفصل موقف هوسرل عن موقف ديكارت." (Gaston Berger, 1941, P46)

والحقيقة إنه من شدة ما كانت علاقة القصدية أساسية بالنسبة إلى الذات المتعالية في نظر هوسرل، فإنه جعلها ماهيتها. "ولنتذكر أنه وبالعكس من ذلك، فإن ماهية الوعي ذاتها هي بالنسبة إلى هوسرل أن يتوجه إلى شيء آخر غير ذاته، وهذه هي حياته الخاصة. عندما تقول "أنا أفكر" بلا زيادة، فليس له أي معنى. العالم الموضوع بين قوسين يحتاج إلى أن يبقى هنا بوصفه ظاهرة، حتى يكون للكوجيتو معنى. الأنا المتعالي هو ما هو فقط بالقياس إلى المواضيع القصدية". (Gaston Berger, 1941, P47)

ويظهر لنا بذلك أن الكوجيتو لن يكون له أي معنى حسب هوسرل، من دون القصدية، لأنها هي التي تضمن للأنا ممارسته لفعل التفكير الخاص به، حين توفر له الموضوع الذي يفكر فيه. وبفضل القصدية سيتمكن الأنا من الخروج من عزلته، من خلال توجيهه نحو الموضوع، وهذا بدوره ما سيصون الكوجيتو الهوسرلي من أن يكون كوجيتو فارغا، كما كان الحال عند ديكارت. "الرد أرجع الوعي إلى ذاته والوجود إلى الكوجيتو، لكن الكوجيتو هو قصدي". (Daniel Christoff, 1966, P44)

وبدل أن يكون هناك تعارض بين الذات والموضوع، مثلما تصور فلاسفة العصر الحديث ذلك، يؤكد هوسرل أن القصدية ستقضي على كل تعارض بينهما، وتوحد بينهما في نسيج واحد هو نسيج القصدية، الذي تتلازم وتتكامل فيه الذات والموضوع. "الوعي والعالم لن يتعارضا أبدا في الموقف المتعالي، لأن العالم ليس موجودا إلا بقدر ما يظهر لي مثلما هو في ذاته، أي بوصفه ظاهرة خالصة. بالمثل لا يوجد الوعي إلا بوصفه منفتحاً على العالم. لا يوجد بالمعنى الدقيق لا داخلية ولا خارجية، وإنما نسيج قصدي واحد ووحيد، لا انحلال فيه، ولا انفصال، وهو النسيج القصدية للوعي وللعالم". (Edmund Husserl, 1992, P25) وهكذا سيربط هوسرل بين الذات والموضوع برباط جد وثيق، حيث سياترب عن القصدية أن يكون الموضوع ملازماً للذات أو متضايفاً إليها. والرد بطبيعة الحال هو الذي ساعدنا على "اكتشاف التضاييف الأساسي، ذلك الذي يربط مجموع العالم بالذات المتعالية، والتي تحمل العالم بصفته وحدة المعنى". (Gaston Berger, 1941, P38)

11. الأنا الخالص أنا كلي:

يصير هوسرل على أن الأنا المتعالي هو أنا كلي (Ego universel)، وهو ما يمكنه أن يوحي لنا بوجود بعض التناقض في تصويره للأنا، إذ يبدو لنا في البداية أن الأنا الذي نستخرجه من الكوجيتو هو أنا فردي، فكيف يمكنه أن يكون أنا كلياً بعد ذلك؟ يجب علينا إذن أن نرفع كل لبس عن هذه المسألة المهمة جداً.

صحيح أن هوسرل يشترط على كل فيلسوف أن يمارس تجربة التفلسف بنفسه، لأنها تجربة شخصية تماما، ومن ثم فهو مطالب بإجراء الرد بنفسه، وعندها سيتمكن من اكتشاف ذاته بذاته، ولا معنى للكوجيتو، سواء عند ديكرت أو عند هوسرل، إلا بهذا الشرط. " قلنا إن الرد الفينومينولوجي هو الإجراء الذي يجب على كل واحد منا أن يمارسه فعليا، لكي يفهم طبيعته وقيمه ... مثلما يجب وعن طريق فعل شخصي رد الوقائع، لكي نرى الماهيات، يجب أيضا وعن طريق فعل شخصي مثله تماما رد العالم، لكي نعثر على الأنا الخاص بنا". (Gaston Berger, 1941, P66)

ويبدو لنا في البداية أن الأنا الذي نكتشفه في الكوجيتو هو أنا فردي تماما، لكن الأمر ليس كذلك أبدا لا بالنسبة إلى ديكرت، ولا بالنسبة إلى هوسرل خصوصا، فقد سهر هذا الأخير على توضيح المسألة بنفسه، حين أبح على الطابع الكلي للأنا الخالص، حيث قال: "الذاتية المتعالية، بوصفها موجودا كلياً ومطلقاً". (Husserl, 1957, P 389) وبطبيعة الحال الرد وحده هو الذي يمكنني من اكتشاف "ذاتي بوصفي أنا مطلقا، كلياً ومتعالياً". (Edmond Husserl, 1953. P83)

نعم إن الأنا الذي نكتشفه بالكوجيتو، قد يبدو للوهلة الأولى أنه فردي، مادام كل واحد منا قد اكتشفه وحده وبداخله، ومع هذا فعند تحليله تحليلاً معمقاً، سيتضح لنا أن هذا الأنا ليس فردياً، بل هو أنا كلي تماماً.

لكن ما معنى أن يكون الأنا الخالص أنا كلياً؟ معناه أنه أنا غير شخصي (Ego Impersonnel)، حيث يؤكد هوسرل على ضرورة التمييز بين الأنا الشخصي، والأنا غير الشخصي، "الأنا الخالص... لا يجب الخلط بينه وبين الأنا الشخصي". (Sara Brunet, 2018- 2019, P16) ذلك أن الأنا الشخصي يتمثل في شخص (personne) كل إنسان، وهو يكمن في حياته الخاصة بكل تفاصيلها، أي حياته العادية في العالم، وباختصار هو الأنا التجريبي- النفساني، وهذا الأنا خاضع للتعليق بالضرورة. أما الأنا غير الشخصي، فهو يكمن في الأنا المتعالي الذي يبقى بعد التعليق. ويعني ذلك أن الأنا المتعالي لا يتعلق بشخص الفيلسوف تحديداً، ولا يخضع للتغيرات المختلفة التي تطرأ عليه بوصفه أنا تجريبياً- نفسانياً، بسبب خضوعه لعامل الزمان. "غير أن هوسرل لن يتردد في أن يعتبره مطلقاً، وفي أن يؤكد هويته خلال كل تلك التغيرات التي... تشكل التجربة الأصلية للزمان". (Ludovic Robberechts, Husserl, 1964, P93)

الأنا الخالص مستقل تماماً إذن عن شخصي الفيلسوف، فهو يملك ماهيته الخاصة به، ويتمتع بديمومة وثبات خاصين به، يجعلانه يحافظ على هويته، بالرغم من كل ما يطرأ على الفيلسوف كشخص من حوادث مختلفة. والحقيقة إن الهوية التي يحافظ عليها الأنا الخالص هي هوية كلية،

لأنها لا تخص الشخص الواحد على حده، بل هي هوية مشتركة بين جميع الناس، بالرغم من كل الاختلافات الموجودة بينهم. "لما كان الأنا الخالص هو الوحدة التي لا تنتج عن أي بناء خارج الحوادث، فلا يجب الخلط بينه وبين الشخص الذي أكونه أنا في مختلف جوانب حياتي العادية، حتى وإن كان خاصا بي أيضا بوجه ما. الأنا الخالص مستقل عن شخصي، عن تاريخي، عن نشاطاتي". (Jean- Sébastien Hardy, 2008, P3)

يستمد الأنا المتعالي كليته من ماهيته الخاصة، "يقودني تأملي في الأخير إلى النقطة التي أدرك فيها، أنا الذي يتأمل عندئذ في ذاته، أدرك أنني أملك ماهية خاصة". (Husserl, 1957, P 384) وتكمن هذه الماهية في بنيته الخاصة، وهي بيئة قبلية وعامة أي كلية. إذ يرى هوسرل أنه مثلما تملك الأشياء المادية بينها الخاصة، يملك الأنا المتعالي هو أيضا بنية الخاصة. "بنفس الطريقة التي تتيح بها البنية المكانية للمواضيع الفيزيائية الهندسية، وهي علم ماهوي، يمكننا من أن نكتشف «بنية كلية وقطعية لتجربة الأنا»، والتي ستكون موضوع ماهوية متعالية". (Gaston Berger, 1941, p 69- 70) ويترتب عما قلناه أن بنية الأنا المتعالي مشتركة بين كل الأنواع، لأنها موجودة عندها جميعا دون استثناء. "تصورنا جماعة الأشخاص بوصفها تجمع ذوات تشترك في بنية عامة مشتركة بين جميع الأنواع الشخصية". (Sara Brunet, 2018- 2019, P97) وتكمن كلية الأنا المتعالي في هذا الاشتراك بالضبط.

وتتمثل هذه البنية الكلية في "قوانين الأنا المتعالي" (Laurent Vachon Roy, Juin 2015, P94)، وهي قوانين تقويم الماهية، والتي تكون قوانين متعالية بطبيعة الحال. لهذا فإن الأنا الخالص مشترك بين جميع الناس، ولا اختلاف فيه من شخص إلى آخر، لأن ماهيته المتعالية واحدة. وهنا يظهر تأثير كانط عليه، فقد استلهم كثيرا من الأنا المتعالي الكانطي أثناء صياغته للأنا المتعالي الخاص به، وإن كانت بينة الأنا المتعالي عند هوسرل مختلفة كثيرا عن بنيته عند كانط.

12. الأنا الخالص هو أنا تقويمي:

نصل في الختام إلى آخر سمة للأنا الخالص عند هوسرل، وهي أنه أنا تقويمي أو تأسيسي (Ego constitutif)، والحقيقة إن هذه هي أهم خاصية له، وهي تمثل الدور الذي يقوم به في فينومينولوجيا هوسرل، وهو دور جد حاسم. "حيث يلغي الرد بالفعل كل مفارقة وكل واقع مسبق، ولا يبقى خارج الإيبوخيه سوى الوعي المؤسس للدلالات، أي الذاتية الواهبة". (Jules Bednaski, 1959. P344).

يرى هوسرل أن ديكارت قد أصاب تماما عندما أرجع أساس الفلسفة والعلوم إلى الأنا أفكر، غير أنه أخفق بعد ذلك في تحديد طبيعة هذا الأنا، حيث عرّف الأنا بأنه جوهر روجي ماهيته التفكير، فانزلق بذلك إلى الميتافيزيقا. أما هوسرل فإنه سي طرح التأمّلات الميتافيزيقية الديكارتية نهائيا من فلسفته، ويفضل أن ينظر إلى الأنا من جانب جديد هو الجانب المتعالى المحض، لذلك فإنه تخلى عن الأنا الميتافيزيقي الديكارتى، ووضع مكانه أنا متعالٍ، أي أنا وظيفي تماما، لأنه سينظر للأنا فقط من جهة الوظيفة التي يقوم بها خلال المعرفة، وهي التقويم. ويبين هوسرل بذلك أن كل وجود يتعلق بالضرورة بالأنا، لأنه هو الذي يُقوّم وجوده، "كل ما يوجد يتقوم داخل الأنا، وليس له معنى سوى به". (Jules Bednaski, 1959, P353)

والحقيقة إن تقويم الأنا لموضوعاته هو تقويم مزدوج، فهو مقوم للوجود ومقوم للمعنى في الوقت نفسه. "كل صورة للتعالى لديها معنى وجودي يتقوم داخل الأنا. كل معنى وكل وجود يمكن تخيله، سواء أسمي محايثا أو مفارقا، هما جزء من حقل الذاتية المتعالية بوصفها مقومة لكل معنى ولكل وجود". (Edmond Husserl, 1953, PP 70- 71)

ويمكن تقويم الذات للموضوع أساسا في أنها هي التي تمنحه معناه، فهي واهبة المعانى. "هوسرل يرفض التوقف عند "الشيء المفكر" لديكارت، وي طرح الأنا المتعالى بوصفه وظيفة تقويمية خالصة". (André- A. Devaux, 1954, P 275)

وهذه هي القصدية المتبادلة بين الذات والموضوع، حيث يعطي الموضوع نفسه بنفسه للذات، بينما تقوم الذات المتعالية بتقويمه أي بتأسيس معناه. "باختصار شديد إن العالم يعطي نفسه بنفسه للشعور الذي يعطيه معناه. هذه هي أكبر حقيقة أوصلنا إليها الرد". (نادية بونفقة، 2005، ص96). وبناء على ذلك أطلق هوسرل على الذاتية المتعالية اسم "الذاتية الواهبة". (Jules Bednaski, 1959, P344).

بعد أن عرفنا الوظيفة التقويمية التي تقوم بها الذات المتعالية، فإن ذلك يبرر لنا على الوجه الأكمل لماذا اشترط هوسرل أن تكون الذات سابقة على الموضوع، "أسبقية الذات المتعالية كمتقوم لكل معاني الكينونة والقيمة، بل أسبق على كل المعاني". (يوسف سليم سلامة، 2007، ص 158) لأنها هي التي تضيف الوجود والمعنى والقيمة على كل موضوع، أي على العالم بأسره.

تؤسس الذات المتعالية المعنى من خلال القوانين القبلية التي تتضمنها بداخلها، ثم تضيف هذا المعنى على الموضوع، فهي واهبة المعاني والدلالات للمواضيع. لهذا فإن الموضوع لا يستمد حقيقته من الذات المتعالية فقط، بل ويستمد منها وجوده أيضا، مع التأكيد على أن هوسرل لا يقصد أبد بلفظ الوجود وجود الشيء المفارق للأنا -فهذا المعنى قد طرحه نهائيا من خلال الرد- وإنما وجود الظاهرة

الخالصة أو الموضوع المفكر فيه، باعتباره وجودا محايثا للأنا. "كما أن إبراز العالم كظاهرة معناه أن نفهم أن كينونة العالم لم تعد تعني وجوده أو حقيقته، بل معناه، وأن معنى هذا العالم يكمن في كونه كوجيتاتوم مقصود من الكوجيتو. "على كل حال إن النتيجة التي يصل إليها الرد ليس الكوجيتو وحده، وإنما الأنا- الكوجيتو- الكوجيتاتوم (Ego- cogito- cogitatum)، أو الشعور بهذا العالم، بصفته الشعور المؤسس لمعنى العالم". (نادية بونفقة، 2005، ص98). وتصل الذات المتعالية إلى المعنى عن طريق الحدس، وهو الحدس الماهوي أو الحدس الخالص. "يبين هوسرل الطريقة التي يطرح الأنا نفسه بها، بوصفه مقوما للعالم في الحدس الواضح". (Gaston Berger, 1941, 68)

والأهم من كل ما سبق هو أن الذات المتعالية الهوسرلية لا تبني هذه الدلالات، على طريقة الذات الكانطية، وإنما تكتشفها فقط بداخلها، فهي حاضرة بشخصها فيها، وما على الذات سوى أن تسلك الطريق الصحيح إليها -الرد طبعاً- لتتمكن من حدسها في النهاية. لهذا فإن عمل الذات المتعالية يقتصر على النظر أو الرؤية فقط، أي على الحدس الخالص. "الحدس الفينومينولوجي هو الإدراك المباشر لحقيقة تُعطي نفسها لنا بشخصها. ولا يمكننا أبداً بناء هذه الحقيقة المدركة، مثلما لا يمكننا تعريف كيفية بسيطة كالأزرق. كل ما يمكننا فعله هو الإشارة إلى الشروط التي يجب توفرها لكي يصبح هذا الحدس ممكناً". (Gaston Berger, 1941, P67)

وبما أن الموضوع ينكشف بذاته وبكامله مباشره في الحدس الماهوي، بحيث لا يبق أمام الذات سوى أن تنظر إليه وتصفه بدقة، فإن هوسرل يعتبر الحدس الماهوي رؤية حدسية أو رؤية ماهوية. "الحدس الأصلي من حيث هو ماهوي، هو المبدأ الذي يعطيني بطريقة مباشرة الماهية ذاتها في امتلائها. أما فيما يتعلق بالتنوع الماهوي، فهو الإجراء غير المباشر، وهو يستخدم المخيلة، التي أصل من خلالها إلى هذه الماهية ذاتها". (Edmund Husserl, 1992, P22)

صحيح أن الماهيات أي الدلالات المثالية حاضرة منذ البداية في الذات المتعالية، لكن ذلك لا يجعلها مستغنية تماماً عن الذات، لأنها لا تحقق لنفسها الاكتفاء الذاتي، بالعكس لن تكون لها أية قيمة من دون وجود الذات، لأنها هي التي تكتشف وتحس هذه المعاني، وهي التي تمهيا للمواضيع. لذلك فإن دور الذات حاسم في عملية الإدراك عند هوسرل، بحيث تبقى الذات المتعالية سابقة للموضوع وأهم منه بكثير، لذلك وبدل أن تلغي الدلالات الذات المتعالية، فإنها تثبت وجودها، لأنها تستلزمها بالضرورة. وهذا ما يشرح لنا جيداً ما قلناه سابقاً من أن وجود العالم يرتبط بوجود الذات، لأنها هي التي تمنحه وجود ومعناه على السواء. "الذاتية المتعالية هي وحدها التي تملك المعنى الأونطيق (Ontique) للوجود المطلق، وهي وحدها التي تكون غير متعلقة بغيرها (أي متعلقة بذاتها فقط)،

بينما العالم الواقعي يكون موجودا بلا شك، لكنه يملك تعلقا أساسيا بالذاتية المتعالية، لأن معناه لا يمكن أن يكون معنى العالم الموجود، إلا بوصفه تقويما للمعنى القصدي التابع للذاتية المتعالية". (Husserl, 1957, P388)

13. خاتمة:

كان هوسرل مقتنعا تماما أنه لا يوجد إلا أساس واحد ووحيد متين يشيد عليه كل صرح الفلسفة والعلوم، هو «الأنا أفكر»، فكان جد متأثر بديكارت في هذه المسألة. ومع ذلك فإنه رأى ضرورة بناء مفهوم جديد للأنا أفكر، يتجاوز فيه كل الأخطاء التي وقع فيها ديكارت وكانط في الكوجيتو الخاص بهما.

كان هوسرل بحاجة إلى أنا فلسفي بالدرجة الأولى، فهو لا يرغب في مفهوم علي للأنا، مثل ذلك الذي نجده في الطب والبيولوجيا... وعلى العموم العلوم الطبيعية التي تتناول البدن بالدراسة، كما حاول هوسرل الابتعاد قدر المستطاع عن الأنا النفساني كما يدرسه علم النفس، بسبب تطور وانتشار النزعة النفسانية (PSYCHOLOGISME) في عصره، والتي تبناها في البداية ثم تخلى عنها، ومع ذلك فإن تهمة عدم التخلص من النزعة النفسانية ظلت تطارده طوال حياته. فلجأ إلى تأسيس أنا فلسفي جديد، يتميز عن كل تصورات الفلاسفة السابقين له للأنا، فرجع إلى «الأنا أفكر» الديكارتية والكانطي، لكنه استخرج من نقده لهما، كوجيتو جديد منقح ومطور، بحيث جعل «الأنا أفكر» خالصا ومتعاليا، وعينيا وحقيقيا، وربط بقوة بين الذات والموضوع، بانتقاله من الكوجيتو الديكارتية الفارغ إلى الكوجيتاتوم، وبتأكيد على علاقة القصديية بين الذات والموضوع. كما جعل الأنا المتعالى أنا ضروريا، مطلقا، كليا، أوليا، أصيلا، قصديا وتقويما.

لكن ما يمكننا استنتاجه في آخر هذا المقال المتواضع، هو أن مجموع الخصائص التي حددها هوسرل للأنا أفكر ستجعله أنا مثاليا بالضرورة. "الفيينومينولوجيا... ستقدم تصورا مثاليا عن

الذاتية". (Laurent Vachon Roy, Juin 2015, P90)

والحقيقة إن الطابع المثالي للأنا المتعالى هو الذي أوصل هوسرل لبناء فلسفة مثالية، يفتخر بها أيما افتخار، ولكنه يميزها عن أية مثالية أخرى عرفتها بلاده ألمانيا قبله، فيسميها "المثالية المتعالية" (Husserl, 1957, P337) أو "المثالية الفيينومينولوجية". (Alfred Weber et Denis Huisman, 1957, P380)

وهي ليست شيئا آخر سوى علم الذاتية المتعالية، "الذات عند هوسرل، أي الوعي الخالص الذي يبقى، بعد رد العالم، سيظهر عندئذ بوصفه الواهب الخالص للمعنى. وعلى أساس هذا الاكتشاف ستعرض الفيينومينولوجيا في تأملات ديكارتية بوصفها علم الذاتية المتعالية، التي

يقصد بها التوضيح التدريجي لكل الدلالات التي تقدمها الموضوعات والمواقف إزاء هذه الموضوعات". (Alfred Weber et Denis Huisman, 1957, PP335- 336)

ومهذا ستكون الفينومينولوجيا هي العلم الذي يدرس الأنا المتعالي، في دائرته المتعالية الخاصة، من خلال بيان وظيفته التقويمية، التي لن يكون هناك أي وجود أو أية معرفة أو أية قيمة من دونها، وهذا ما يبين أن مفهوم الأنا المتعالي هو الحجر الأساس في فينومينولوجيا هوسرل.

المصادر والمراجع:

المصادر باللغة الأجنبية:

- 1)- Edmund Husserl, 1950, *Idées directrices pour une Phénoménologie et une Philosophie Phénoménologique Pure*, Traduit de l'allemand par Paul Ricœur , édition Gallimard, Paris.
- 2)- Edmund Husserl, 1992, *La Crise de L'humanité européenne et la philosophie*, Traduction de Nathalie Derpaz, Hatier, Paris.
- 3)- Edmund Husserl, 1976, *La Crise des Sciences européennes et la Phénoménologie Transcendantale* Traduit de l'allemand et Préface par Gérard Granel Gallimard, Paris.
- 4)- Edmund Husserl, 1970, *L'Idée de La Phénoménologie*, Traduit de l'allemand par Alexandre Lowit, Presses Universitaires de France, 1ere édition, Paris.
- 5)- Edmond Husserl, 1953, *Méditations Cartésiennes*. Traduit de l'allemand par M^{elle} Gabrielle Peiffer et M. Emmanuel Levinas, Librairie Philosophique J. Vrin, Paris.
- 6)- Edmund Husserl, 1972, *Philosophie Première*, Traduit de l'allemand par Arion L. Kelkel, Presses Universitaires de France, 1^{ere} édition, T2, Paris.
- 7)- Husserl, (Octobre- Décembre 1957), *Postface à Mes Idées Directrices Pour Une Phénoménologie Pure*, Traduction et notes de L. Kelkel. Dans *Revue de Métaphysique et de Morale*, 62^e Année, N^o 4, Paris.

المراجع باللغة العربية:

- 1)- يوسف بن أحمد، 2008، الظاهرة والمنهج، فينومينولوجيا هوسرل، مركز النشر الجامعي، تونس.
- 2)- نادية بونفقة، 2005، فلسفة إدموند هوسرل. نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 3)- حسن حنفي، 1990، في الفكر الغربي المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، لبنان.
- 4)- يوسف سليم سلامة، 2007، الفينومينولوجيا- المنطق عند إدموند هوسرل، دار الفارابي، بيروت

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1)- Jules Bednaski, (Juillet- Septembre 1959), *Deux Aspects de la réduction husserlienne : abstention et retour*, Dans *Revue de Métaphysique et de Morale*, 64^e Année, N^o 4, Paris.

- 2)- Jules Bednaski, (Octobre- Décembre 1957), *La Réduction husserlienne*, Dans *Revue de Métaphysique et de Morale*, 62^e Année, N° 4 (Octobre- Décembre 1957). Paris, Presses Universitaires de France.
- 3)- Gaston Berger, 1941, *Le Cogito Dans La Philosophie de Husserl*, Edition Montaigne, Paris.
- 4)- Sara Brunet, *Le Concept de Personne chez Husserl*, Mémoire de Master I, présenté à l'université de Charles de Gaulles- Lilles3, France, Année 2018- 2019.
- 5)- Daniel Christoff, 1966, *Husserl ou le retour aux choses*, Editions Seghers, France.
- 6)- Jean- Sébastien Hardy, Avril 2008, *Statut et légitimité du Moi pur dans la phénoménologie husserlienne*, Mémoire présenté à la Faculté des études supérieures en vue de l'obtention du grade de maîtrise en philosophie, Université de Montréal, Canada.
- 7)- Lothar Kelkel et René Schérer, 1964, *Husserl, Sa Vie, Son Œuvre avec un Exposé De Sa Philosophie*, Presses Universitaires de France, 1^{ere} édition, Paris.
- 8)- Jean- François Lyotard, 1954, *La Phénoménologie*, Presses Universitaires de France, 7^{eme} édition, Paris.
- 9)- Rakotomalala Christian Daniel, Juin 2021, *A la Découverte du Sujet transcendantal chez Kant*, Mémoire de Maitrise en philosophie, Université de Toliara, Madagascar.
- 10)- Ludovic Robberechts, 1964, *Husserl*, Classiques du XX^e siècle, Edition Universitaires, Paris.
- 11)- Laurent Vachon Roy, Juin 2015, *Le Rôle de l'intersubjectivité dans les Méditations Cartésiennes de Husserl*, Mémoire présenté à la Faculté des Arts st des Sciences en vue de l'obtention du grade de Maître en philosophie, Université de Montréal, Canada.